الطبعة الثانية

عبدالله ثابت

حرام ٦. ٧





20.6.2012





عبدالله ثابت

٢٠٧ حرام





لوحة الغلاف: أيمن يسري

خطوط العناوين: علي عاصي

الطبعة الثانية 2012
ISBN 978-1-85516-852-7
دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342 بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114-2033
هاتف: 442-866-1-961، فاكس: 443-866-1-961
email: info@daralsaqi.com

"تحذير وجودي:

النيكوتين ليس سبباً للسرطان وأمراض الرئة وأمراض القلب والشرايين

قطران ١ مج، نيكوتين ١ مج

أول أكسيد الكربون: ١ مج"

Download

:

:

أفّ...

كيف سأحصل على الكلمات الممحوّة!

يا بثينة... يا نهران،

هل تريان ذاك الجالس وحيداً، نعم نعم... الذي يعتمر قبعة القماش الرمادية، إنه يحيى سبعي، أعطياه هذا الكتاب...

وإذا سأل "من أنتما"، فلا تجيباه!

نُسُك... حرام؛

هذا النمر الهربان في دمي... حنكٌ مرّ لكلّ ذي عمرٍ موصد، لكنه غفل لحظةً فدخله كائنٌ بالصدفة، عاث بأشيائه، وشرخ صلابة الظلمة في زواياه، وجرّد كلماته الشجاعة من سيفها. بدّل مطالع سكتاته عن مواضعها، وقبل أن يخرج... كسر مقبض بابه!

وخلق استدراكاً، وكلما ازداد يوماً إضافياً تيقن أكثر أن كل شيءٍ، على هذا الكوكب، امتنع عن استقباله ابتداءً، لكنه أتى أخيراً...

أتى مصحوباً بكلماتٍ من نوع:

"سرّي ولا يفتح إلاّ بيد (...) – التعميد لم يكن صريحاً – عن غير قصد – عاجل جداً – ليس للتداول – ممنوع – سريع الاشتعال – غلطة في التقويم – يعتمد في الأطلس جديد – لا يفنى ولا يستحدث من العدم – من يهوه إلى الله – لا... غالباً – صدق فسيح – وهو قادرٌ بطبعه التلقائي – النُّصُب الأكبر – عين الشمس – باتجاه الإنسان – دويّ هائل – وشم على العملة – ... إلخ – الأبدية – خارج السيطرة – مقادير كيميائية – لا اعتذارات – حراسات فلكية مشددة – مجهر – رصيد مفتوح – هذا الخطأ لا يخطئ هدفه – صيغة مجهولة – حول العالم وإليه في ٩٣سنة – تجدون برفقته بعض التفاصيل، ونذكركم نيابةً عن القدر وإيمانكم، أنه لم يكن بوسعنا تلافيه!"

وللتوّ اشتعل،

للتو استيقظ انتقامه... جداً!

&

واهٍ واه!

وا سطوة الحالات الخفيّة، وا خفاياي السحيقة جداً،

وا تمائم المصير السحرية...

يا كل كهربائي المرّة... مرحباً،

مرحباً...

فلا أضيق من جوفي الشرس،

المثقل باتساعاتك،

بالورطات الخاصة،

وأوهن ما في الهواء من لذّات،

وأثخن ما في الهواء من خيبات،

لا أوعر من أحشائي الموبوءة بالصفر،

وأصغر فاصلة!

واهٍ...

يا طعم أيامي المرفوضة،

لماذا جئت بي من لحن العسيريّات،

من بقايا الجبل المثلوم،

جئت بي من نقمة المعوزين الذين يحرسون البنوك،

من شيءٍ عدائيٍ مجهول،

يشبه أسئلة القبيحات عن العدالة،

يشبه زفير الثيران قبل أن تنطح،
وجئت بي من كمد الإهانات، والكذبات المصيرية،
من صكوك السماوات،
من صرخة العفو في ساعات القصاص الكريهة،
من الظلم الكونيّ وقهقهات الشياطين الصغيرة،
من أعلى صيحةٍ مخرت اليابسة،
من الاشمئزاز الغليظ، ومن الجفول والبربريّة...
من القرى وطينها،
ومن آخر خيمة غادرها البدو... ناسين الربابة مربوطةً في العمود،
والجمر مشتعلاً، والكلاب نائمة مع الماعز،
جئت بي من شفة الحياة... ومن مخلبين مغروسين بظهر الموت،
من هناك، من الخفايا السحيقة،
وطفرة الجينات في أحشائي،
حيث عنصريتي باتجاهي!

&

جبهتي المتوترة،
كنشازٍ مُقْتَلَعٍ من صوت حاد وجهوري، آتٍ من قاع الغيب، من أعمق ما فيٍ قاع الغيب، أو كنمرٍ خارج السيرك، أو أثر عجلة مبعوجة، أو حتى صوت مارلون براندو في العرّاب...

&

ها هي أشياء الليل تحتدم...

مثل قبليٍّ عنيدٍ – هكذا يقال عنه – لكنه في الحقيقة خائف،

ها هي الأظافر تكسر القلاّمة،

وها هم الحلفاء يتعاشرون في الدبابات!

والناجي الأخير ضيّع بذلته، نسي أن يعكف ذراعيه على صدره،

أن يبتسم على السلّم... هكذا أقسم أن لا يرفع حاجبيه ولو لمرّة!

&

لو نفوح بنا كما نحن؛ حيث يقطن في أعماقنا اثنان،
اثنان تجردا من ثيابهما، وحين أصبحا عاريين...
هرعا في حركةٍ واحدةٍ إلى النور...
ليطفئاه!

&

... لمزيدٍ من النكاية،

ها أنت مفتون بأعمق ما في كل شيء، لكنك حتماً تخشى أنْ ليس هنالك دوماً سوى الجحيم!

هي جحيمٌ ساحرة، شرط سحرها الكبير: الوحدة الفاجعة جداً، هكذا تأتي أولاً، ثم لا يكون للحيتان التي تجول في رأسك من محيطٍ يكفيها سوى هذه الوحدة الرحيمة!

وحتماً كلما أردت الغوص إلى سحيقك أكثر كان عليك أن تتخفف من زوائدك أكثر، وأخيراً ستحدث نفسك مرة بأن تتخلص منك، وسترى إلى جسدك كشيءٍ فائض وثقيل!

أبداً... ليس فيما تسير نحوه غير أن تتنازل عن كونك كائناً يقبل القسمة على غير نفسه، ومهما حاولت أن تتناسى مصيرك قفز في وجهك هذا الشؤم الرحيم، أو جاء به شيء أو أحدٌ لا يدري ما الذي حمله إليك!

وأبداً... ليس بمقدورك أن تتراجع، ويوماً إثر يوم ستخفق أشياء جديدة كانت تسليك في أن تستطيع ذلك مجدداً، ويوماً ما لن يكون أقصى ما تريده سوى أن تكون شهيقاً بلا ذاكرة...

بلا ذاكرة تماماً!

&

لو أني أقتلع ذاكرتي اللبنية... وأعلقها في غرفة أمي،
لو أنها تنبت لي ذاكرةٌ من الأسيد والفحم...
لأنام والوجوه مغسولةٌ بالنار،
مسلوخةً من جبيني...
وتقطر كالنايلون في الهواء!
لو أني بدلاً لأصابعي... أعجن جلدي المحكوك بالخل،
لو أني بدلاً للرسائل الخاصّات...
أعير أطرافي لغواصٍ فقير،
ولو أني بدلاً للمقاعد والأسرّة العارية...
أصبح أعين النهمين،
ولو أن مجاديفي...
أينها مجاديفي المرهقات!-
لو أنها تكسر القارب،
لو يقتتل بها اثنان،
لو يرميانها على الساحل...
وعليها حروفي الضالّة!

&

نعم مشيت...

لكن ماذا تركت لي الطريق غير هذا القلب المحطم!

ولا، لا أنام...

حتى يتخثّر هذا العويل الذي في صوتي،

أو ينبت في فمي مخلب!

&

يا غبن عيني!

أنا المحتبي على طرف الزرع.

فيم أجلس والتربة غيرت طبعها، والقرية ضيعت أغنيات الطير؟

هيّا، سأنفخ خيالاتي،

وأنتمي لنفايات المدينة!

&

وإلى أسوأ ما خمنته يوماً... ها أنا واقف هناك، في غيبوبةٌ لا تنتهي، منتصباً في جوفها على حدٍ رقيقٍ تجاه كل شيءٍ، بين شطب المهانة وأبدية الذات، حيث لا شيء للانتظار، ولا شيء للفقد، وحيث الكلام معلّق في فراغات لا تطيقها الجهات، حيث كوكبي الذي ما عاد يحفل برجعةٍ أو بينونة، ولا بخلودٍ أو عدم... فهذا المدار الرهيب من الحنق ها قد أينعت أزاهير قسوته أخيراً، وميّزت بجبهتي لكنات أصواتٍ ما كانت للسماع من ذي قبل!

&

بالسنوات التاعبات كثيراً،

بالمماشي الترابية، والغبار الذي أثارته المراكب والحيوانات،

بالله... بأبي المهيب، وابنة جارنا المحطمة،

والقليلات اللائي تركن وشماً في الدم، باللائي ملأن صوتي بالنمش واللعاب،

بالأقساط، بالشيطان النذل حيناً، والطيب حيناً،

بالجلوس وحيداً في المقاهي الفقيرة، حيث رائحة المسافرين و"الجراك"،

بالتكرمش في غرف الفنادق المهلهلة،

بالمقابر والمطارات،

بالكشافات ذات الفولتات العالية، والمواليد والعتمة الصريحة،

بالتمدد في أحواض السباحة، ورغبة التبوّل المضحكة،

بالمشروبات والليالي الخافتة،

بالخامسة فجراً... حين أشرع النافذة لشتائنا الجبليّ،

بالركض والعرق المتصبب والتأخر عن الدوام،

بآلام الظهر وارتفاع الحرارة،

بالمقايل اليمنية، بالشعر والقادمين والمهربات اللذيذة،

بالعطور التي أنسى السؤال عن أسمائها، لكنها لا تغادر أنفي،

بثديي أمي، وثيابها العسيرية الملوّنة،

بقريتي والوادي وغنيماتي العشر الشقيّات،
بالقطط التي طالما اندسّت في لحافي،
بالمدارس التي تجهّلت فيها؛ بالابتدائية والمتوسطة والثانوية،
بالمدرسين المجرمين، والحصص الثقيلة، وواجب الدين الطويل،
بالفرح العابر في وقت الفنية والفسحة والرياضة،
بالجامعة، والغش والامتناع عن الغش،
بالقبيلة والأقارب والحي وولائم الأنساب،
ببقع الملابس الداخلية التي تشبه أسرارنا الخجولة والقذرة،
بالانزواء كجرذ وراء الأشياء،
بالأسماء التي حذفتها،
بالدينيين، والدنيويين، والشيوعيين، والقوميين، والملحدين،
بأبها، وجدة، والرياض، والإنترنت، والبلكونات، والنيكوتين، والفرص المهدرة، ورسائل الجوال، وصنعاء، وبيروت، ودمشق، والقاهرة،
بالقنوات الفضائية، والبلايستيشن، والهتك، والنوبات، والإرهابي ٢٠،
بالأصدقاء والخونة، بالأرصفة، والشكوك الضخمة، والخرافات والمادة،
بما آمنت به ثم شطبته، بما تأثمت منه ثم اعتقدته،
بكل الثواني والأمكنة التي مرّت بي،
بما كان لي، أو معي أو ضدي...

بهذا الوجود المجنون... تحسست أناي،
وهكذا ازدردت الوجود والإرادات،
الوقت واللاوقت...
واستفرغته على نحوٍ آخر!

&

احزم يديك بحبل فرسك،

واركل جنبيها بقسوة لتركض...

تركض، فهذه الأرض ليست لك،

ولا ولدت بها!

:

:

كدّس أحلامه الفارس على ظهر مُهْرته،

لكن المهرة لا تعدو...

تبرك بأورامه الداكنة!

&

كل اثنين يجلسان في ظلّ شجرة، سيدور في أقصى خلديهما أن يقطعاها...
ذات يومٍ لن يكون هنالك ظلٌّ، ولا شجرةٌ... ولا خَلَد!

رمضان... وفي طريقه إلى بلدةٍ دينية، والوقت قريباً من الرابعة فجراً. لم يتبقّ على الإمساك سوى ساعةٍ أو أقل، والوجود يبدو في تلك اللحظة فاتراً وكأنه للتو انزاح من شهوةٍ صعبة، توقف عند مطعم أعزل. دخله وتراءى له، كأن الجوع لو تمثّل في شيءٍ لكان هذا المكان، وها هو قد ولج جسم الجوع!

استقبله ذلك العامل الهندي. نظر إليه وإلى بقية العمال، ذوي الأجساد النحيلة، والوجوه الشاحبة، والرؤوس التي يتقاطر منها الزيت، والملابس الملطخة، وتكاد روائح أجسادهم تَمثُلُ خارجهم فتتخلق منها أشباحٌ منتنةٌ تعرف أنها ستلاحق ريقك للأبد... ثم نظر للعامل الذي يسأله عن طلبه، فهمس "وأي أكلٍ ستأتي به هاتان اليدان القذرتان"، ثم خطرت بباله فكرة، سيطلب ما لا يتدخلون فيه...

- هات كيس خبز، وسفن أب...

تأمله العامل بعد أن كرر عليه الطلب لمرتين أو أكثر، وأخيراً ابتسم ومضى.

ذهب للمغسلة وهو يحدث نفسي "وما المشكلة أن يشمئزّ منك أحد، أو تشمئزّ منه! لا يهمّ... أعرف أن هذا الهندي استهجن طلبي وكانت ابتسامته تكاد تنطق أني أكثر جبناً من أن أواجه الجوع في مطعمٍ بطريقٍ نائية، وأني بالتالي لن أقدر على مواجهة ما هو أشد... إنني بعين هذا الهندي لست رجلاً، لست سوى XXXX. وهو يعرف

تماماً أني أشمئز من وساخته، وأني ما طلبت الرغيف إلا لأنه لن يمسّه، إذن ها نحن نستقذر بعضنا، بصراحة... لا يهم!"

جلس على طاولةٍ قصيّة بالمطعم، وبالخارج رأى عبر الزجاج حافلةً ضخمةً للتوّ تقف، وعلى الفور يندفع منها عددٌ كبير، هرعين إلى المطعم، وبالتأكيد فإنهم يريدون أن يدركوا الوقت قبل أذان الفجر... إنهم أتراك. كانوا رجالاً ونساءً، عرف من العلم المنسدل على جانب الحافلة، ومن الجمال التركيّ، الذي لا يخطئه!

هناك بالمدخل شابتان، يبدو أنهما أصغر النساء، كانتا دون الثلاثين حسب تقديره، كانتا ساحرتين، وتبدو الأشياء من حولهما في خدرٍ شفيفٍ...

صرف نظره عنهما، ثم أعاده إلى واحدةٍ منهما إثر قهقتها التي لم يأبه لها من الجائعين سواه، وذلك الشاب الذي يقف معها، الذي يقهقه معها. كانا يتبادلان الإشارة بسبابتيهما ويقولان لبعضهما كلاماً لا يفهمه، ويضحكان بانفلات، ووجد نفسه يبتسم معهما دون شعور! شرد وهو ينظر إليهما، وحدث نفسه "إذن فهنا حبٌّ لم يعلن بعد... لابد أنها للتو سنحت الفرصة ليحسما أمريهما، بعد أن تبادلا نظراتٍ متوترةٍ كثيرة، واختلقا صدفاً مكشوفةٍ لتدور بينهما بعض الكلمات... لقد جمعتهما صدفة الرحلة المقدسة، وجمعتهما الحافلة ذاتها، وتورطا في الحب، وها هي الفرصة قد حانت لينفجرا، وكلٌّ منهما يخبئ خلف قهقهته كلمةً واحدة، إنهما يبالغان في الضحك ليقول كلٌّ منهما للآخر: "الآن أنت معي!"... وأحس أنه محظوظ

هذه الليلة، إنه يرى مشهداً لا يفهمه إلا هما... وهو!

جلسوا جميعاً... تكاد تكون كل الطاولات محشورة بالأتراك، غير أولئك الذين فضلوا تناول أكلهم خارج المطعم. وهو في مكانه البعيد بالزاوية يفتح علبة السفن أب و"كيس" الخبز، يتابع من تقع عيناه عليه من الموجودين... والعمال الهنود يتصارخون كأنما جاءهم فرجٌ انتظروه طويلاً، ثم جاء أخيراً، جاء و لم يتبق من الوقت إلا بعض ساعة، لكنه كافٍ لقضم جيوب هؤلاء. لقد كانوا يحتفلون بهذا التنادي!

أما هو فـ... مرة، مرتين... كثيراً، امرأة خمسينية، لمحها وهي تنظر إليه بتركيز، ووجد نفسه ينظر إليها باهتمامٍ عفوي. كان يجول بعينيه على الموجودين ثم يعود ليرمقها، فإذا نظرت إليه صرف عينيه عنها بخجلٍ مجهول!

فكّر "يا إلهي، أيّ سرّ أمومي في هذه المرأة التركية التي تقف على أواخر قوتها، وأي شيءٍ كامنٍ بجوفي وجوفها يحشو كلينا بهذا الانشداه إلى بعضنا!"

تابعها بتركيز، وهي تأخذ إناءً صغيراً من فوق الطاولة، وتتحدث إليهم بطريقةٍ تشبه الاستئذان أن تحمل هذا الإناء لمكانٍ آخر، وكلهم أجابوها بالودّ نفسه.

قامت، والإناء في يمينها، وبيسارها راحت تزيح كرسيها للوراء...

داهمته رجفة. إنها تمشي نحوه، ووجهها يتهلل بابتسامةٍ. تقدمت حتى وقفت أمامه. كانت مشرقةً، والضوء يلمع على ثنيتيها المبللتين، وكانت عيناها مختزلتين قليلاً، ودون أن تنبس بكلمة مدّت له بالإناء!

ما شعر به لحظتها لم يكن رهبةً، لكنه شيءٌ يشبهها. كان مأخوذاً لدرجة أنه شعر أن يده ستخذله أن يتناول ما في يدها، لكنه وبعد وقتٍ تمالك قوته ودون أن يقول شيئاً أيضاً، مد يده وأخذ الطعام، فألصقت عينيها بعينيه في نظرة رضا، ثم أينع وجهها... واستدارت لتعود إلى طاولتها!

هه... الأكل الذي عافته نفسه، وكاد يتقيأ لمجرد أنه تخيل يد ذاك الهندي، وهي تعمل فيه وتقدمه إليه، ها هو يأكله حتى أتى عليه كلّه، غير عابئٍ بنتانة المطعم، ولا وساخة العمال، ولا حتى بحدّته في أن يأكل من إحسان أحد!

أخيراً، قام وغسل يديه، وأعطى العامل ريالين، وقبل أن يخرج التفت إلى مكانها ليراها تتابعه، فابتسم، وحرك رأسه بأقصى ارتباك، وفور أن رآها تبتسم، وترفع رأسها كأنما تهمّ بالوقوف... صرف نظره، ومشى خارجاً!

ركب سيارته، وضغط برجله على دواسة "البنزين"، ومضى مسرعاً... مسرعاً، وهو يحدث نفسه؛ هذا ما تأتي به طرقاتي: مطعمٌ بذيء، وعمالٌ موحلون، ووقتٌ فاترٌ، وأفكارٌ باهتة... وفجأةً تأتي الطرقات نفسها بحافلةٍ ضخمة، وغرباء عابرين، وحبٍ لم يعلن بعد، وامرأةٍ خمسينية... امرأةٌ أهرب منها وأنا لا أفهم مما حدث شيئاً!

أفّ... يا للغباء، لماذا لم أتعلم الكلام التركيّ، أو على الأقل كلماتٍ قليلةٍ منه، مثل (ما اسمك – أنت جميلة وتشبهين أمي– أريد أن أعرفك – هل تأخذينني معكم – هات عنوانك – شكراً – هذا ألذّ طعام أكلته في حياتي – هذا مطعم عظيم – وداعاً!)

:

:

لا أتحرك حين تلج الكرة الشبكة، لكني أصرخ بجنون حين أرى فرصةً مهدرة!

&

لا أعرف لماذا أنا هنا...

في هذه الحفلة مع كل هؤلاء الشعراء الشرهين،

وبين هؤلاء الحاضرين، الذين تسيل قطرات الدم من جنبات شفاههم!

والكلام الذي في كمّي...

لماذا عليّ أن أغمغمه كالهرّ النّهم!

يا ربي، وأنا واقفٌ في هذا الصف الباهت،

وأنت ترى أحلامهم المالحة، وقلوبهم المخرومة،

وتعرف -بالتأكيد-...

كل الساعات التي قضوها على أبواب المطابع، ودور النشر،

يريدون أن يكونوا عالميين وتعساء، مثل رامبو على الأقل،

وأن يتعلموا اللغات الغربية كي يترجموا إليها قصائدهم،

رباه، لماذا أنا هنا بالرغم من كوني أكره الكتب والفنانين،

وحلمي الملعون أن أفقد شهوة الطريق... فقط!

&

قالت الحدأة:

(... قالت رفّة جناحي "لو أن للريح عشّا!")

قالت العصفورة:

(... قالت رفة جناحي "لا تهرقي دمك إلا بفم نسر!")

قالت الشجرة:

(قال الغصن: ظل الشجرة يسأل "متى ستأتي الريح والعصفورة، متى ستأتي الحدأة!")...

&

روحي تتجوّف كبئر،
والعالم والأشياء في هوّتها... صيحةٌ ضعيفة!

&

هناك طعمٌ للهلاك، ولا شيء يمكنه أن يحرسنا من مأساويته سوى أن نجرّب طعمه ولو مرة، فلنتناول هذا المصل... حينها ستكون عواصف الغبار على هذا النحو فرصةً لسماع أغنية عن الموت!

الغبار على هذا النحو، فيه شيء من قلق الطبيعة، ففي غبار كهذا فقط يمكنك أن ترى الخيانة بوجهها العظيم!

يااااه، الخونة هم من يمنح الحياة فرصة البقاء!

في الغبار يمكنك أن تشم وحيدة جاثيةً على ركبتيها، مرعوبةً من فكرة الصحو البلهاء، تلك المخلوقة النادرة التي لا ترقص إلا في ليالي الغبار، ولا يتذكرك صوتها إلا وعروقك معبأة بالاختناق...

في الغبار يمكن أن تكفّ كل الأشياء عن ادعاءاتها وتضيع ذكرياتها الحلوة، كما تضيع مفاتيح بيت الغريب، فلا يدري أن يذهب!

&

وآتي إليك يا بلكونتي...
كي أفحص قلبي الصغير وهو يلقي على الأشياء دقّاته،
دقّاته المعزولات في صدري كمريضاتٍ بالجذام،
لم يخترن أن يكنّ معاً، لكنها الصدفة الملعونة!
آتي كي أنصت إلى قلبي...
ودمه المرتبك يتسارع،
داخلاً خارجاً مثل عانسٍ مدعوةٍ إلى سهرة،
لكن الليل ينقضي سريعا، ولا أحد يصطحبها!
آتي إليك يا بلكونتي كي يقف قلبي على حدّك...
وينعق كالغراب،
ويحدق في العالم كالبوم،
ويتكرمش في خيبته كالخفاش،
إنه قلبي الذي فرّ إلى جوعه الانفرادي،
وإلى لياليه المصمتة،
وإلى النوبات الطفيفة ذات الوخز اللذيذ،
قلبي المحكوم بالرفض في زنزانته الروحانية،
يصعد بلكونته كي يرى الشارع الممتد من اليمين إلى اليسار،
الشارع بسياراته الملوّنة،
وأبواقها الأجنبية،

بإشارات المرور الغبية جداً،
بالشرطي الذي يمسك صفارته،
كما كان يمسك بسيجارة حشيش البارحة ،
الشارع... بمحلات الخضار والفاكهة ومكتب العقار الزجاجي،
بالبنايات المقابلة وحبال الغسيل والثياب الداخلية المدلاّة،
تلك الملابس الروائية،
بخيال فتاتين سحاقيتين وراء إحدى النوافذ،
الشارع... بخطوات الماشين المتشابهة على الأرصفة المتشابهة،
بالمتسولين، والصبية ذوي الكلمات البذيئة،
بفيلا العمدة، والحارس يتململ من وقفته الطويلة ويحلم لو كان كلباً،
بالقطط المشردات، والنساء المخنوقات بالعباءات السوداء...
العباءات التي تشبه الجوع والشهوة!
قلبي... قلبي على حدّ بلكونته يتصفح الزحام كي يميّز حياته،
لكنه لا يسمع موسيقاه المفضلة،
ولا يلمح ولو سريعاً عربية واحدة وهي تشتري لبناً قليل الدسم،
ولا يرى اللوحات، والرسامون يقفون إلى جوارها كالضباط المنتصرين،
وليس هنالك من غجر راقصين، يصيحون في وجه الموت والبلدان!
قلبي الخائب... لا يحصل على أشيائه،
فلا يملك إلا أن ينعق كالغراب الوحيد،
ويحملق كالبوم المغبون، وينكمش كالخفاشة الخائفة...

ينكمش إلى عزلته وجدرانه الفضائية!

آهٍ... لكنه لا ينتهي،

فغداً أيضاً سيتفحّص الزحام، وسيتغلغل في الأشياء بصمت،

ويأتي ليقف على حدّ بلكونته!

&

لا بد أن كل غريبٍ يخبئ منديلاً،
مخلوعاً عن قلبه القديم...
لا بدّ أن كل غريبٍ يضع طيناً على طرف لسانه،
ويتحدث عن طعم الوقت!
لا بدّ أن لكل غريب غارٌ يتقلّص،
وقليلاً ويلتصق جبين الخفّاش بأضلاعه المظفورة...
قليلاً!

&

لا تبك يا وحيد،

فحين تنتهي لقبرك...

ويسأل الحفّار والموت الجليل "من الذي سيقبض إيصال استلامك!"

لن يكون هناك أحد!

&

كمدك اليومي؛

أن تتسلق صدرك، حتى إذا بلغت أعلاك... أغمضت عينيك، وسقطت إلى قاعك...

لكنك لا تتهشّم، فتصعد من جديد، وترمي بك من جديد!

&

أنني مصاب حتماً بالنفور من أهل هذه الأرض، ولا أحتاج كذباً من نوع المبادئ والأفكار لأثبت أنني غضبٌ ممشوق...
أكره أني هنا، وأكره أن أثبت لأحد بأن معي ما يستحق أن يُرى!
ينتابني جفاف كريه، ولأني سئمت اشتراطات الأشياء،
والشكّ يغلي في جوفي كي أخرج بقسوة!

&

أيتام...
في كل مرةٍ تأتيهم دعوة للمهرجانات،
أو حتى ولائم الختان وذكريات الميلاد،
يشهقون... ويغمضون أعينهم فرحين بالوحم الطفيف،
ويبرق شبق الكاميرات الموعودة... بأحداقهم الذابلة!

أيتام... وفي كل مرةٍ وهم ينفضون الدعوات عالياً،
يتحدثون إلى موزعي المغشوشات البذيئة...
"سنغيب عنكم لبضعة أيام،
عن مخابئكم السافلة، وعن زجاجكم المبقع بالسبابات"

أيتام... يودون لو يتقيأون على طاولات المدراء البدينين،
وهم يتسولونهم إجازةً اضطرارية، بحق الوطن والله... والعافية!

أيتام... ينسخون أوراق الدعوات ليرموها في ردهات بيوتهم، وفي مسجد الحي، والطرقات، والحدائق، وعند بوابات السجون والقصور، متظاهرين بأنها سقطت عفواً... ويحلمون لو يفهم الناس
كم هم مهمّون وحسّاسون،
وكم تحترم البلدان البعيدة كتبهم، وكم لديهم من عضلات الكلام،

وكم في جيوبهم من وصفات الحداثة والنبيذ!

أيتام... وهم يهاتفون أصدقاءهم الحسودين،
يحلفون؛ أن لن يستجيبوا لأية دعوة،
فهم مشغولون بالتحنيط والتأليف...
وعندما يوصدون الهاتف،
يهرعون إلى المطارات قبل مواعيد رحلاتهم بنصف نهار...
يشربون القهوة بالكفّ اليسار، ويدخنون ببطء،
ويلقون نظرةً على مقالات الرأي والفنون،
وبالتأفف الفخم يقذفون بالجرائد دون اكتراث!

أيتام... يصعدون إلى المنبر
كأن في أيديهم الحبل الذي سيشنقون به العالم،
وكل واحدٍ منهم يفكر كيف سيختطف الجمهور ليلتفوا عليه...
وهو يبتسم باعتزازٍ بليد!

أيتام... يصيحون على المنبر بأوخازهم الكسيحة،
وينظرون إلى النقاد الجالسين كالسحرة والحكماء الوقورين،
وبينما السادة يوزعون أعطيات التصفيق،
يرمقهم الأيتام بحنقٍ، وينادون الله؛
"لماذا لم تمنحنا ظهوراً صلبة،

وشفاهاً حمراء،
وجينزاتٍ مشدودةً على الحوض والردفين!"

أيتام... حين يرجعون إلى غرفهم... يلتفون على الليل
يتمحصون الوفود يتيماً يتيماً...
حيث يحتقرون بعضهم،
ويبصقون على الإهداءات البلهاء، ويئنون في خشوعٍ باهت...
"يا ألله، ما عاد في أراضيك سوانا!"

أيتام... يحشرون رؤوسهم في الوسادات،
وفي شخيرهم خيالات المدراء البدينين،
وردهات بيوتهم، ومسجد الحي، والطرقات، وبوابات السجون
والقصور، والأصدقاء الحسودون!

فصبراً، صبراً يا رفاقي الأيتام...
ولنتدرب على الوحدة، والعيش بلا آخرين،
فحتى الدود حين نموت لن يستسيغ رؤوسنا المعطوبة،
ولنبق في زوايانا الخامدة، مثل عريانٍ يحمل حجرة...
ليرجم بها الوقت المتحيّز،
يرجمه بين كتفيه!

&

في عين ملدوغ؛

"أمنياتي المسنّة، على قبري اكتبوا منها واحدة...

وصلاتي الحزينة، اجعلوها تاريخ موتي!"

يا ألله...

لماذا يموت هذا البحّار في اليابسة!

&

أحسّ أنني شعرةٌ سقطت من رأس يتيمة، والتصقت بصمغٍ على طرف شبّاكٍ مكسور...
ينفضها الهواء، ولا تملك الطيران!

&

ما عدت أحسّ أني غريبٌ عن هذا الكوكب فحسب...

إششششش...أحس بهذا العالم؛ أسمع أصواتاً لارتطاماتٍ تأتي من قاراتٍ بعيدة، أتحسس رعب شاةٍ مربوطةٍ في حوض مركبة، تتلبسني شهوةٌ غامضة بين اثنين...تفصلهما طرقات بلا نهاية!

&

لا أخجل من كوني فجّاً،
ولا أني جافٌ ومجدب،
ولا أني أخطئ في اللياقات العامة،
وأني أطلق كلماتٍ شنيعة في وصف الأشياء،
وآكل وأشرب بيدي،
وأختار ملابس غير متناسقة الألوان،
وأني أعتقد في وساوسي أكثر من اعتقادات الانتحاريين،
أني فشلت في التصرف برشد،
وتصرفت كمروّج ممنوعات،
وأنْ لم أملك وقتاً للأعراس والعزاءات،
و لم أحفظ كلماتها المنتقاة،
ووهبت وقتي للأفكار المريضة،
وأنْ لم يحدث أن توددت للجميلات،
وحدث كثيراً أني رمقتهن باحتقار،
وأن لم يحدث أن قمت بواجب الاحترام للمشهورين والمثقفين،
وحدث أن كنت أخرج دون استئذان،
ولا يؤثر بي ما يقال عن حدتي،
ولا أعرف ما يقصدونه بكلامهم عن نوباتي،
لا يخصني هذا الفراغ!

لا أخجل...

فأنا لست غيمةً سمينة،

ولست سماءً خدّاعة... ولست شاعراً كما يظنون،

ولا آبه للطاولات وطريقة الجلوس،

لكن ما يخجلني فعلاً هو الرذاذ المسكين...

والقبور الساكتة!

&

كأسٌ زجاجيةٌ سقطت هناك الليلة... بعيداً هناك،

في القارة اللاتينية،

سقطت... وتهشّمت،

صوتها يلاحقني، وارتطامها يدوي برأسي!

&

متماهيان إلى عدم،
مخبوءان خلف ظهرينا،
وفي فمينا غربانٌ مهووسةٌ بالنعيق!

&

نيكوتين...

يشبه الأمر بأن تكتشف أن في ذراعك جرحاً لا تعرف حكايته، ولا يحضرك: متى وكيف، لكنك في لحظة غريبة، وبضحكة مفاجئة تتذكر أن كل ما في الأمر أنك مشيت، عن طريق الصدفة، في غابةٍ بكماء، واحتك جسدك بأغصانها...

وبعد وقت مرّ بك وخز طفيف، وتساءلت: ها أنا أحمل جرحاً...

لا أشعر به، لكنه هنا!

أنا أحمل جرحاً، لا أشعر به...

لكنه هنا!

&

"ليس مهماً أيُّ شيء..."
هكذا خدعت نفسي طيلة عامين،
فالوقت مرّ، وأنا أدفع البتلات المسكينة نحو احتضارها،
- وأنا أتأملها تذوي - كنت أدخن وأكرّر مراتٍ:
لا يهمّ!
الوقت مرّ وأنا أقيم مشانق، وأضع تحتها كراسي غاضبة...
وحين يخطف الحبل رقاب الحاضرين... كنت أدخن، وأكرر مرات:
لا يهم!
لكنني الآن سئمت تلك الكذبة الآمنة،
مللت رمي هاتفي في الجدران، أو ركنه لأيامٍ على الوسادة،
وصرت أشمئز من عنفي، ومن شكي في شفقة إخواني،
ومن ابتسامتي على تلك الشاكلة البلهاء،
ومن الهيبة التي في جماجمهم مهما كانت بعيدة،
لقد صار مقرفاً بقائي لعامين عارياً وفظيعاً!
أوووه ...
ونادمٌ على كل مرةٍ قلت فيها "×× أمك" لفتاة في سوق، تلقي التحية،
قلتها مراراً، وعيناي تبرقان كأبطال الرسوم المتحركة،
نادمٌ على مقاطعة الخبثاء الذين عرفتهم،
أولئك الذين يستدرجون العوانس، والوحيدات،

والمثخنات بالقهر عبر مكالمات الجوال الطويلة،

إلى سريرٍ لا يتغيّر...

الخبثاء، الذين في سهرةٍ واحدةٍ فقط، يتبادلون مقاطع الفيديو!

نادمٌ وأصرخ:

لماذا تركت تلك الغنائم، ورضيت بروحي المطعونة!

آخ!

هل حقاً هذه الضائعة العمياء... روحي!

وهل هذه الحياة العصابية... أقصى غزواتي!

آه كثيراً، "فليس من شيءٍ مهم"...

هكذا خدعت نفسي طيلة عامين،

لكنني الآن أريد أن تكون اللحظات كلها مهمةً من جديد،

أن تكون المكاتيب الرخيصة،

والزور، والمسلسلات المكشوفة... حكمتي،

أريد أن أطرد الصادقين الأوباش،

أريد قلباً سخيفاً، يقفز لنقرات المطر،

وإذا لمح فراشةً عالقةً في الماء... صاح؛

أيتها الغيمة،

فلتكُفّي مطرك المعتوه!

&

محاولات نسيان شديدة الذاكرة؛

مثلاً...

فرك نبتة بدوية تحت الشمس، التحديق في السماء منتصف الظهيرة،

أو سرقة أنبوب دم... وتقطيره في بناية مهجورة،

التجسس على فم أفعى،

أو صبّ كولا في علبة كولا أخرى،

عدّ النملات التي تمشي إلى ذرة سكر،

أو اكتشاف قهقهة أشد وقاحة... يمكن ارتداؤها حين يشتد الألم!

&

عند الباب...

توحّشي يخلع الآخرين مني،

وأخرج للشتاء دون وجوههم!

&

مخلب...

في عامه الأول، ولحظة بزوغ فضّته الشرسة، غادر شارداً إيوانهم الفسيح إلى بريّته، ولاذ بصداقة العشب الحرام، والجدران الرديئة النائية، كان يفتح الشبّاك وحده ويرمق المقبرة، ويتذكّر الرقّة والعطف الفسيحين اللذين أهالهما عليه غسّال الموتى في ذكرى مولده، يوم هدّل رأسه قليلاً، ثم مدّ يديه في الهواء، وقال: ينتهون إلى مبتداك!

يا خساراتي الجبّارة...

أيتها المؤمنات الساكتات، هيّا نحفر مغاراتٍ لهياكلنا أعلى الجبل!

&

أف...

حتى متى سأحلم بمنحة دكتوراه في إسبانيا،

وبصورة تذكاريةٍ مع راؤول قونزالس،

كم أتمنى تلك الأرض الجامحة، وتلك الخيول المهجنات!

أف...

وحتى متى والحياة تنحاز للعواصم والموظفين الكبار،

للوعاظ المستعدين للخيانة في أي لحظة!

أف...

حتى متى يجب أن أصرخ أني؛ لستُ مجدداً، ولا كلماتي خالدةٌ أو مهمة!

لست لواءً في القوات الخاصة... يصف تيجانه في غرفة الطعام،

لتسجل القنوات فيلماً عن خدشين في ساقيه،

ولا حائزاً على جوائز ولا أعطيات... لينتبه لي منظمو المهرجانات

لست سليلاً لأسرةٍ عريقة، كي أحصل على اشتراك مجاني في قنوات الفحش

لست لاعباً في منتخب البرازيل... لأسجل دعاية بيبسي بالملايين!

أف...

سأحلم... وأحلم بدفاتر ونهرٍ يعبر غابتين،

كي أكتب قصائد مضحكة،

وأثرثر بعباراتٍ عرجاء،
عن طعم الحياة!

&

قلبي... بآماله الصعبة، هناك في المنتصف،
بين المرهم المدلوك...
والجلد المريض!

قلبي المقطوع من شجرة،
يتيم بلا جهة... ودونما سنيه الفائتات، ودون كذبه الجائع،
يفتش عني في اللحود، في سلالم البنايات، في الجدران المهتوكة،
واللقطات الممنوعة،
وفي كلّ شِعبٍ جافّ... يصيح هذا الفؤاد؛
"يووووه...
يا إخوتي الخائفين،
ستعتادون هزّات جنوبكم، وصوت أسنانكم ... تصطّك كالأبواب القديمة،
لا بأس فنحن سباعٌ جبليّة،
لا تريد أن تشبع، ولا تنام إلا في الخلاء!"

&

آه...

أريد أن أكذب، لكن لمن!

أريد أن أخون، لكن... من سيؤلمني!

&

قبل مدة كنت مع سائق تاكسي في بلدٍ ما، وظللت أفكر طول الوقت في فكرةٍ تبدو لأول وهلة عابرةً وبليدة، لكن الانسحاب إلى عمقها أكثر فأكثر يعني أن يقف شيء ما في الداخل، مذهولاً مما ينطوي عليه هذا الوجود من القسوة...

حين توقف السائق أعطيته أجره، ثم قلت له وأنا أمسك بيده:

– أتعرف أنه يكاد يكون يقيناً أنك لن تراني ولن أراك على امتداد الحياة سوى هذه الدقائق التي ركبت فيها إلى جوارك، وأن نزولي الآن من سيارتك، وأن ذهابك... يعني الموت، موتنا تماماً؟

– ....

– هيّا لنقدم على موتنا بشجاعة، وضغطت على يده بحرارة!

– ....

.

واجهني بصمتٍ رهيب، حتى إني بدوت وكأني أضعه بالفعل أمام فاجعة... ولأنه فكّر في كلامي للحظة، فقد شعرت بأنه يريد أن يفعل أي شيء حتى لا أفلته نحو الموت/المجهول، وأن نبقى معاً ولو لثوانٍ إضافية، وتبدّت في عينيه رعشةٌ حائرة، لكن السيارة وقفت، وأخيراً تصرفنا بشجاعة!

ظلّ واقفاً لبرهة، ثم تحركت... مركبته!

&

غرفتي مثلي...

محشوّةٌ بالهاربين، والقراصنة، باللوحات، والكتب، والموسيقى، والحالات، والأشياء المبعثرة من زمنٍ طويل، وقناني عطور كثيرة، وأشرطة بلايستيشن، وأفلام لتوم هانكز وآل باتشينو، ومارلون براندو، وصوري، وأجهزتي، وآلة الأورج المركونة، والعود ذي الأوتار المرخيّة، ومصاحف وتحف زجاجية، وجرة ماء فخارية، ومسامير مغروسة في أماكن عديدة من الجدار، وخربشات، وأوراق كتبتها عن صديقٍ مات قبل زمن... إلخ،

غرفتي مثلي أيضاً...

غرفتي هي العالم المفتوح،

وأنتم المغلقون بإحكام!

&

عن الكبت، واللحوم، وضرورات النوم، وفرويد المخبول،
وعن كل الأحياء الخلفية التي تكلمنا عنها،
وعن التي باعتني الغليون في مطار بيروت،
وعن الحدود... تلك التي كلمتني عن كل شيء في تسعين ثانيةً،
ومؤخراً عن نشاز هرائي هذا،
وإلخ
أدوّن ندامتي!

&

لم يخطر ببالي وأنا أقطع الأرياف والمدن...
أني سأعلق بالأغاني المطمورة في البيوت المهدّمة،
وخلف الجدران المتروكة للأحزان والوحدة،
وخلف حيطان المواعيد السريعة،
ولم أدرِ أني في كل منعطف وجبلٍ وساحل...
سأحمل معي فجائع الأحناك!
وما خمّنت وأنا أعبر الصباح والظهيرات،
وأواخر الليالي، والقوارير، والبكاء
أنْ سينبت في كل عظمٍ مني صوت وكلام،
أنْ سيكون على ظهريَ وشم أغنية...
بين أصابعي فتات أغنية...
في عينيّ لمعة أغنية،
أن سأكون مخبأً للمرجومين والذكريات،
والساهرات قرب الشبابيك،
أني سأصير اللحن الذي تنام عليه القبور،
وتغنيه كل ليلةٍ أمي وأبي...
وامرأة!

&

أمشي...غير مكترثٍ بوقع أقدامك الراجعة،

فمنذ ذاك الغياب...

ويداي مدفونتان في جيبيّ،

وما من أحدٍ كي أراضيه!

&

كلّ شيء ليس أبعد مما هو عليه الآن، وكما لم يكن دواري وغشاواته في أي وقتٍ مضى!

لقد اخترت أن أكون أعزل، بلا الأطراف، ماشياً بصممي، مختزلاً في عماي، وها هو البكم وإيلامه يحلّ بي...

ليس من عودة، وليس من رغبةٍ في الإمساك بشيء، ولا الإحساس بحيّ!

&

أنا القارب الذي تهشّم،

وأنت الغريقة!

أنا الليلة التي هوى السقف فيها،

وأنت الدفينة!

السور الذي انتحرت على عتبته القرية،

وأنت صلاة الفجر!

السكتة الدماغية،

وأنت رسالة الجوّال!

الحربة المغروسة في سنام الثور،

وأنت الخرقة الحمراء!

أنا الحرام الشهيّ،

وأنت المرجومة!

الحزن الكهل على وجوه الجبال،

وأنت الأرملة!

أنا الهاوية،

وأنت آخر الشاهقين!

أنا الوفاة المفاجئة،

وأنت بحّة فيروز!

...أنا جبهة والدي،

وأنت سنينه السبعون!

الأبابيل،

وأنت الطريق إلى الحرمين!

الفجاجة العمياء،

وأنت صوت الباب!

الشتائم،

وأنت ينبوع الله!

الخيانة،

وأنت الهدية الملفوفة بالشيفون!

أنا الهذيان المخزي،

وأنت سنوات الكحول!

أنا حريق البيت،

وأنت منديل الغريب!

يا رب، إذا أعدت الحياة كرّة أخرى، فلا تخلقني خاتماً مفسوخاً!

يا ربّ، إذا أعدت الحياة كرّة أخرى فاخلقني فوّهة!

&

كل يومٍ أحلم بطائرة،
ومطارٍ مزدحم، وأناسٍ يودّعون مسافرين بلا رجعة،
كل يومٍ أحلم أني سأدير لكم كتفيّ، ووحيداً سأمضي دونما حقائب،
وكل يومٍ أقسم:
حين أعبر المحيط الكبير...
سأكتب لحظة الإقلاع أسماء الذين اعتصروني،
كل الذين طبعوا على دمي حبهم العميق،
والخيّالات اللائي أحرم نفسي حنوّهن في كل مرة،
اللائي تجوّلن بفمي واحدةً واحدة،
وواحدةً فقط سأمدّ تحتها خطّاً،
حينها سأنادي أصغر المضيفات،
لأعطيها أسمائي الجوّية،
وبنبرةٍ متخثّرة أكلمها "وجدتها منسيّةً هكذا في مقعدي!"
ورقتي ستطوف بجميع المسافرين، والملاحين، وغرفة القيادة،
لكنهم أخيراً سيتلفونها،
سيعتبرونها عبث مسافر...
مسافرٍ قديم!

&

عذّب موتك، احفر قبراً، اتركه مفتوحاً وهاجر...

احرمه من ميتتك!

هاجر... ولتنس أحلام الشواهد مشنوقةً إلى السقف،

تطوف بها مروحة الهتاف المغرور، تدور بها الحروف السكرانة

ولا تنظر إليها... فالمنام لا يحتضر،

ولا يتهتّك السقف،

وجذع المشنقة... لا ينكسر!

&

أنسى أحياناً...

أني لست سوى كتفٍ مخلوع!

&

جسدي، مساحتي الوحيدة، أو كتلة اللحم هذه التي أحلّ فيها... هذه اللقمة الكونية في حنك العالم. ما أضيق أني أعرف أن حياتي هي غصّة الدنيا بي، رفضها أن تبتلعني، أني كحكحتها واحمرار وجهها، ثم وكزة الأقدار بين كتفيها لتلفظني خارجها...

جسدي، مهربي بالرغم من كل شطوبه، بالرغم من كل ما اعتراه من أيامٍ غريبة، لا عناوين لها، أو أوصاف...

إنه مهربي، خيمتي الموصدة عليّ!

جسدي، مخيّم للاجئ، لم يقبل بالقسمة ولا المعاهدات... واختار فاقته وحسراته، ليطلي بها خزي الدنيا، وكلّ ما تبقّى!

&

في هذا الشتاء المُحكَم...

وفي إحدى لياليه الفاجرة، وجهازي الرديء في حجري...

تصفحت موقع لارا فابيان،

سمعت أغنياتها العطوفة جداً،

فتركت لها رسالةً هناك:

[... **لارا، إنه الخريف، ومعه بنادقه الورقية، والتساقطات الصفراء،**

موسم الإقلاع عن الأحلام، والأخلاق، والعبادات،

موسم السوق والتنانير القصيرة، والحلمات والشمس الطمّاعة...

ومن بينها أكاتبك،

فتعالي نمسح الروماتيزم الذي تطقطق به شبابيك بيوتنا،

تعالي فقد اشتريت البخور، ودهناً للغواية،

واستأذنت أمي الغياب لشهرين،

لأحدثك قليلاً عن الخوف، وعزرائيل، وذيول البقر،

وسأشرح لك كل شيء...

من معاوية وواصل بن عطاء... حتى "طاش ما طاش"،

وسأخبئ خلف ظهري قرعتك القدريّة؛

أنك لن تعرفي ما هو أقسى من انتظار الخريف،

من توهمه وسط هذا الركام القارس، أنك ستتلفين ألبوماتك كلها،

وترتدين العباءة السوداء على الرأس،

وتخفين يديك في جوارب رجليك!

لارا،

تعالي إلى إيقاع الهراوات، لنكتب معاً أغنيتك القادمة

"التعاسة بلا مزلاج، والغرباء منحوسون بهواياتهم البريئة!"

لارا...

إنه الخريف!]

&

إذن... فالجرح في لثتي، وفمك ينزف،
والميثاق يملأ محجريك بالأرق،
لكنني أتفسّخ، لهالةٍ أو غدير...
أو تضيع السينما!
لا، لا... بل دفتراً للذنوب، وأبدو أنيقاً،
مثل أزارير،
أو مخشاً بمعصم!

&

عندما يخجل العالم من نفسه، ويغدو مضحكاً وبسيطاً...

كسبحات العائدين من الحج،

أحلم لو أنني مجرد لقطة مثيرة بشارعٍ أو ميدان كرة،

حيث التانقو، والتبغ،

حيث جورج أمادو،

وباهيا!

&

أتقنت الكلمات التي تقتلها،

لكننا حين انتهينا... رجعت إلى كلماتي!

&

يا كئيبة،

تعالي نخسر... الخسارات وثائق في جيوب كريهة، لا أحد يقف على ناصية، ويقول: عفواً أيها المارّة، لا تعيدوا لي شيئاً، لقد رميت جبّتي، وكل ما فيها من جلالات الغيب، رميتها عن عمد!

يا كئيبة،

مليء هذا المكان بأشباح لها نكهة البارود، تترك في مواطئها ألسنة ثعابين صفر...

واليتيمات فرائس، ما عاد يطيب لهن النوم إلا في عفونة السراديب،

فتعالي نخسر... نخسر فحسب!

&

هه...

لست شاعراً إذن، فأنا لا أحب الأوكرانيات،
وأشمئز من الشاذّين، ولا أسهر مع أكثر من صديقين،
أحدهما يرقع نعلي بوذا، والآخر مشغولٌ بشجرة نسبه،
لست شاعراً، فأنا آتي السهرات قبل إغلاقها بنصف ساعة،
وأقرا للمكذوبين،
ورسائلي أكتبها للضباع،
وأشتري القمح ولا أرميه للطيور ،
كي أشعر بأهميتي ولو لمرةٍ واحدة،
لست شاعراً...
فأنا أجلس دوماً أعلى الدرج،
وأركب سيارات النقل الشعبية دون مال ،
وحين يشتمني السائق... أعطيه ساعة يدي ليسكت!
أنا لست شاعراً،
لكن أدوات الاستفهام جميعاً بحوزتي،
لست شاعراً...
لكنني بصمة الكائنات!

&

بريئاً إليها،
ناحلاً من انهدام طفيفٍ،
تخرّ في جنبه السكتة،
وإذا استلّ منجله من حقلها...
تضّور جوعها القارس،
لكنها ترجع...
تسمل عينيه بالرجال القراطيس!

&

مرقدٌ واحد، ولحافٌ لا ينحسر...
هذا غارنا،
نخرج منه متساكنين، حالّين ببعضنا، مطمئنين إلى ميلادنا الجديد،
فمذ ردمنا الوادي،
وطيّحنا الخيمة...
لا نحن عدنا، ولا نحن بلغنا الماكدونالدز
نتجول بين المفقودين،
حالمين لو قرأنا عليهم شعرنا الخاص،
نودّ لو هزجنا معاً كجماهير فريقٍ منتصر،
لو أنه يمكننا أن نجوب بهم الشوارع بأيادي متشابكة،
على خيولٍ غريبة الطباع،
ولو أنهم يعرفون عن غبش المغرب،
وعن أقمشتنا التي تتوسدها المقابر،
وعن تأويل مناماتي حين أمتدّ...
وأغرسني في الصلوات المتروكة!

&

دوماً سأستعدي،

إنها فطرتي في الغرام،

فلم يسبق أن استعرت امرأةً لأكتب قصيدة،

بل لطالما ثملت لأهرب من الكلام،

و لم يسبق أن جلست إلى البحر لأسبّ المسافة،

بل لطالما التقيت بالآخرين

كي تتآكل الخلوات في قبح الزحام،

لم يحدث ولو لمرةٍ وحيدة أني فكرت بالبكاء لو أن جميلةً ماتت،

بل لطالما تخيلت أني سأدخن بتهوّر،

و لم أفكر بالكلمة البديلة التي سأكذبها عن شعوري،

لكنها حتماً لن تكون عن الحب!

&

لا شرت حياتي، ولا تقيأني العالم...
وكلّ يومٍ أغدو حرقان الأشياء!

&

ربّاه...

الأحلام مهددة بالموت سريعاً في أرضنا؛ في معزوفاتنا المفضلة، والروايات التي نتبادل أسماءها، وملابس السفر البسيطة، وفي ملاحقة القمر عبر نافذة السيّارة، والكلمات التي قالها الممثلون، وفي الأيام القروية، والنوبات الوحيدة...

في كلّ لقطة خائفة!

وكلما خرج حبيس... وتوسّط الفناء،

وقف قليلاً، ثم طأطأ رأسه، وأدخل يديه في بنطلونه، وزفر:

"ربّاه... أعدني لبيتي"

&

خارج الاتجاه،

خارج النبر،

خارج الصبغات،

خارج الطيوب والجيف،

خارج قهوة البدو والكراسي الفرنسية،

سأخرج حتى عن اللمس،

حالاً فيما سيأتي... أشطر كل سنيني المخذولات،

أعبر شارع الصوت،

أصبح غازاً...

أتحسس صدغيّ، فأعرف أني لبانة الليل،

تعلكني الطرقات الممطورة، وأرصفةِ الضواحي التي لا أعرفها،

تمتصني مسامات الأعين المارّة،

والورق المركون رهن الانتظار،

والزجاجات العاكسة، وسيارات الليموزين،

تكوّرني رائحة محطة المحروقات، واللائي تأخرن عن موعدٍ وثير،

وتنفخني أفواه المراهقين،

وتحرسني أرواح القطط والكلاب الشاردة،

وغزل الخليجيّين عند إشارات المرور،

وفي انعكاس الضوء الأحمر دوماً... أُلتصق!

&

لم أخمّن ملامحي، و لم أقترح كلّ هذا الضنك...

ولا اشتهيت مقابل ذلك شعراً، ولا صلاة،

لكني سأعرّي عظامي في الظلام فقط،

ولتمت كل الزهرات، وكل الذين يهمهمون على القبور!

&

على عقب هذا الفجر البالي، وفي النفس بيتٌ موصد... وفي أقصاه خيالٌ لاصقٌ بالزاوية،

والصدفة لا تأتي!

آه... يا كل الذين واتتهم صدفهم السريعة،

كيف رأيتم ذقن الشيطان الرقيقة!

&

حتى لو أن العالم لم يُخلق،

لكان فمي معلقاً في الفراغ... يقول كلامه دون مبالاة،

ويمضي!

&

ضاع الكلام، ولا أحتاج إلى لسانٍ آخر، والناس لا يغيرون آذانهم... وفي كل مرةٍ يحتقرني رفاقي الماضون، فأنا لا أعرف من أين تُمسك السكين، وعاهدت نفسي أن لن أطلب من أحدٍ أن يتوقف قليلاً في صدري، فكل الذين مرّوا به... ماتوا سراعا!

أما أنا فمذ كنت صغيراً وصمتي لم يأخذه أحد على محمل الجد... اعتادوا أن يعاملوني كما لو أني لم أخلق، فاعتنيت بالنبرات المفاجئة، وتمرّنت على الليل والخيبة!

&

واجمة...

واجمةً تلك الأشياء المهملة، تفتش عن آخر نبرة برّية...

فأينه الذي اختبأ فجأة،

تاركاً خلفه صفير الريح والهتّان؟!

... عنه سألت العشبة!

أينه الوهج الذي خَفَت بصمت،

ساحباً ذراته من فم الشرفة؟!

... عنه سألت العابِرة!

أينه الرمح الممشوق في كبد السماء،

رامياً قميصه لعين الشمس؟!

... عنه سأل الصباح!

أينه الوتر الذي أفلت الربابة،

كاسراً وجه الحداء؟!

... عنه سألت القافلة!

&

الذبيح... عنه سأل النجيع!
الضِلع المعكوف على فجائعه الداكنة... عنه سألت الزاوية!
المنسيُّ على القارعة... عنه سأل الجوع والسقف!

أينه مفقودي؟!
لم يأت صوته اليوم...
لم يأتِ،
والمطر يصيخ أذنيه للجدب،
وبساطه الممدود في الكهف... تطويه البومة،
والضحكات الجالسة على الشبّاك... تبكي،
والسهر الحاسر رأسه... ينام،
وترجف التمائم والأحراز، والأصابع المحوقلات مشدوهةٌ وذابلة،
ويشيح الجبل بوجهه عن السحابة، ولا تشم الشجرة رائحة الغيم!

لم يأتِ...
وتغمض الأغنية عينيها، وتوصد الباب،
والعصفورة اليتيمة هناك... لا ينبت على منكبيها الريش،
وتزيغ ملامحُ النسر عن عينيه، والبنات الحافيات استيقظن بلا ظفائر،
وتفقد مرح أكمامها... الأشباح،

والريحانة والقطط السوداء والرقصة... أرامل عزلاء!

لم يأتِ...
والثعبان لا يلدغ ساق الراعية،
ولا تمسح الحروف عن أحداقها الدمعة الواهنة!

لم يأتِ...
والمارد الغضبان معتصمٌ في إبريقه،
وكلماتي الوحيدة الأسيانة... لم تمسح على شعرها العتمة،

لم يأتِ...
لم يأتِ، أينه مفقودي؟!
عنه... أنا سألتُ!

&

تتقمّصني جثة جوعانة،

تربطني بباب دارك المهجورة،

ونفسي المحشوّة بالليل، تتكوّم على الخيال الأخير...

الخيال الذي فرّ من جبهة صديقي الوحيد... وهو يموت،

مذ تلك الخيانة المرهفة...

والمطر الضائع ينسي تبليل الصغيرات،

والزرافة تدهس ذيل الجنّي ولا يصرخ،

والطيارات الأنبوبية تنتف حاجب الغيمة،

وأنا على الناحية ...

أدق المسامير على لوحة للثعابين،

مذ تلك الخيانة الملساء ...

والنور يخجل من مخازيه!

طريقته الأجدى للحسّ الدقيق...

حاقدٌ... لكنه لا ينتقم، ومخضوبٌ بالكراهية... ولكنه لا يفعل غير الاشمئزاز، وضاربٌ في عدوانيته حتى تصلّبه... هذا القلب!

والعمر من حوله شيء كخرق في سروال أرملة، لا تريد أن تصلحه... وتستحي مما يجب، وتعيش في جوف هذا الخجل!

وكلما رأى حصانه المشلول فكّر: "ألم يكن بوسعه أن يموت بكبرياء السنين التي تمرّغ جبينه فيها، لتبقى أعوامه هناك معلقةً في شهيق الصاعقة!".

لن يعرفوك، يا ميّتاً هناك، هنااااااااك...

وأنت... وأنت لا تعرفنا – نحن البعيدين هنا –

لكنني أعرفِ حتى صرير بابك...

فخذ دمعتي الخجلانة معك، خذها وافركها بين أصابعك!

وأنت تخرج من صدرك شاحنتك الأخيرة...

وأنت تلقي خطاب قدومك على ضوء قنديلك السري هناك...

خذها،

فما كان رحيلك الساكت ذاك، هو ما تنتظره منك النحلة التي تحوم في باحة الدار، ولا كان رحيلك وحيداً هو المفاجأة التي منيت بها بيتك الطيني،

بيتك الذي يقف بعدك مفجوعاً وخائباً...

ولا الوسادة والمقعد والشباك، ولا الدّخان الذي كنت تظهر به في صورك، وحتى جميع اللائي سرقن كلماتك ليقلنها في لحظة حارة، وجميع أشيائك العزلاء... ما توقعن تصرفك المزاجي هذا!

حتى الأميرة الجالسة في الفردوس،

ما كانت تحسب حساب لحاقك المباغت هذا بها!

ولا أنا... ولا أنا تخيلت أنك ستغادر قبل أن آتيك بريحانةٍ من أبها،

أبها التي تشبهك أحزانها الجبلية، وضبابها،

وحسرتها على نمرها الجافل،

ما تخيلت أنك ستموت قبل أن نتمرغ كذئبين في مغارةٍ واحدة،
لكنك فعلتها ورحلت،
وفي الليلة نفسها غادرت مع صغاري،
تركت أرضي، ولم أتشجع لأطير إلى حيث حملتك البجعة الكبيرة!
أما أنت فقد فعلتها ولم تأبه بالنحلة، ولا... ولا الوسادة والمقعد والشباك، ولا بيتك الطيني، ولا الدّخان الذي كنت تظهر به في صورك، ولا جميع اللائي سرقت كلماتك ليقلنها في لحظة حارة، ولا جميع أشيائك العزلاء، ولم تأبه حتى بما ستقوله الأميرة للمؤمنين، ولم تأبة بخطتي وأمنيتي الخاطفة،
لم تأبه بشيء، وفعلتها...
ومِتّ!

&

في كل لقاء... يولد الفقد العنيف،

وحيث يقيم الإنسان موانئ للقادمين... هناك سيبكي لرحيلهم!

&

ودوماً...

لا أحد يعرف عن بقائي خلف العربة التي تغادر!

&

مذ آخر مرة التقيا، تعاهدا أن لا تخطر ببالهما الهزيمة، أن لا يسكتا على نوايا ذميمة... خرجا من القرية، وعاد كلٌّ منهما وفي قبضته طينٌ لضريح، كانا يلفحان الوجوه بأعينهم الحارة، ويصيحان..."لا يكون الرجل شرساً إلا لأنه ينتظر امرأةً... تأخرت!".

وقبل أن يرحلا قالا للصبيّ "صعبٌ جداً وأنت تدير ظهرك أن تقذف بالباب خلفك، فتسمع شيئاً آخر غير ارتطامه...

وتبقى، كلما مشيت بعيداً عنه أكثر، أسيراً لسؤال الغيب الذي تجاوزته!

وحين ينظر المسافرون إلى الخارطة، ستجمع كفيك على رأسك...

وتقول "يا ألله! لو أن الأغاني ما كانت مشاعة!"

&

عليك كل اللعن يا عفن الوقت...
ها قد صارت الأشياء مكرمشةَ وضيّقة،
وصارت الأيام باهتةً...
فمنذ ثوبي الملوّن قبل عشرين عاماً،
منذ الحقل المحشور بالحجارة والشوك قبل عشرين عاماً،
وأنا كما أنا... لا أتوقف عن عصيان أهلي والمعلمين السفلة،
ولا أتوقف عن الهرب اللذيذ،
والجلوس أعلى الحي حيث سرقاتي الصغيرة،
أعد السيارات والطيور، وأعاهد نفسي أن أكره الشمس أكثر!
مذ ذاك، وأنا كما أنا... لا أخفض عينيّ لمن يضربني،
وأصيح لأني حين أغضب لا أتحول للرجل العملاق!
أنا كما أنا... غير أني الآن مخنوق بمفرداتي،
في زنزانة رأسي التالفة،
محبوسٌ، وأضرب هذه الجدران كي تتكسر،
وشعري، وأنيابي، وملامحي، وطباعي الخارقة...
كلها تعوي من النافذة!

&

بذاكرتي...
يمشي ذاك الطفل القليل،
راكناً في باحة المدرسة...
مطمئناً إلى وحدته،
حيث الإسمنت والخرسانة الخام،
يتكرمش كدودةٍ خائفة،
ويرمق بقايا الساندويشات!
يا عالم الكبار...
لابد أنْ كنتم صغاراً،
وكنتم تذهبون للمدرسة القاسية،
لابدّ أنْ جلستم في زاويتي هذه،
وكنتم جياعاً...
وأنْ كنتم تخافون المدرسين الملتحين،
يا عالم الكبار...
حين أكبر مثلكم لن أترك صغاري بأحزانهم في هذا الفناء،
بين الإسمنت والخرسانة!

&

لعبة صوفٍ تحت سريرها،

وأمها فوقه،

والبنت...

تجري وحدها في الغابة!

أيتها التي ماتت، لن يخذلك الله... فروحك هناك في الغيمة،

والرياح قادمة عصر اليوم،

.

.

السماء ستمطر،

وكل ثيابي سأنشرها في العراء!

&

وأنا أنظر في عينيك أيتها الرضيعة...
أرى سهرك خلف بابك الموصد،
وأمك تتوسل لك أن تكوني شجاعةً وصعبة!
أرى أيامك البكّاءة،
وكم مرةً ستستمعين إلى أغنيةٍ واحدة... في ليلةٍ واحدة،
حينها لن تتذكري أنك كنت رضيعة،
لن تتذكريني وأنا أحكّ خدّك بشعر لحيتي النابت للتو،
ولن تتذكري كيف كنت تصغين إلى خدّي!

&

حين أخرج... أخرج مرةً واحدة،
فكتفاي لا يُريان مرتين،
يمكنني الإضراب عن حياتكم!

&

الشارع على يميني، وفي هذا الطابق الثاني من الليل والحجارة... أشعر بخوفٍ شجاع. أريد أن أتحدث عن القاتمين النبلاء، والغناء الضّاج، والكُحول القديم، ومسلسلات ينتصر فيها الرعب، والرسوم المتحركة، والمساجد التي تعجّ بالبخور، وكل الذين يحكون آذانهم المختومة بأصواتٍ هجرتهم، فما كانت الشقوة أن الليالي... هزيمة، وإنما حلّت فجاجة، شراستها أنها كانت نصراً فاجعاً، نصراً مبتور الأطراف، مخنوق الفم، خالٍ من كلّ ظلٍّ، وحتى من ذكريات الوجوه...

إنه النصر العظيم، أحسّه وأنا هنا على عتبة متاهتي العمياء!

كفيف... لا تبهجني الشوكولا، ولا أقف في الطرقات الطويلة لشراء المشروبات والبساكيت، ومسدسات الماء، ولا أوافق على تعريف شيء...

سأحلم أن أتصرّف كما لو كانت المجرة بالونة، أنا من نفخها، وأنا من سيفقأها ذات يوم!

إنني أجد العالم بداخلي صمغاً يلتقط الأوساخ، عالقاً بحذائي، وليس لي إلا المشي حافياً، أو الهجرات بصمغ أيامي، حتى تحدث الصدفة ويسقط البراز!

&

قبل أن أغادر مغارة أيامي النحيلات،

وقبل أن أعرض بوجهي عن هذه المدينة المخطوفة،

قبل أن أمسح شوارعها بعيني الحافيتين من الحب والذكريات،

وقبل أن أخرج من وكري الساكت...

سأحرق أشيائي المكدسة والمنتظرة،

سأكتب ما يلي على ذيولها الغجرية :

... تعبت أوراقي الواقفة...

فوهبتها جلسة النار

تعبت أوراقي السهرانة...

فوهبتها نومة النار

تعبت جدراني الخوّافة...

فوهبتها تهاوي النار

تعبت أغنياتي الجبليّة...

فوهبتها حطيم النار

تعبت لياليّ المقطوعة...

فوهبتها ظهيرة النار

وتعبت أضلاعي الشرسة...

فوهبتها شهيق النار

تعبت ناري الغضبانة...

فاقترحت عليها فرح الرماد

تباركت يا رمادي... تباركت، حيث تجمع سخونتك،

وتنفخ كومة الأوجاع،

تنفخها... وتذروها بوجه الرياح الهربانة!

&

يووووه، يووه...

قبل أن أكتب عن ما في حنكي من المرّ،

وقبل أن أكتب عن صوتي ذي الحروق المجهولة،

وهذا الشطب الذي لا أفهمه على وريدي،

وقصّتي النفسية الضارية، وقلبي المملوء بالسباع والمخالب،

وأنفي التي حاولن الإمساك بها، وعينيّ الفارّتين من ألف عام،

وعن ساقيّ المليئتين بالكدمات، والخدوش،

وحتى عن الغرزات التي في فمي، وكتفي المكسورة،

قبل أن أكتب عن هذا الهباء الضخم الذي أنا فيه...

أريد أن أنسى مرةً واحدة أنني غادرت أشيائي القديمات،

ومفقوداتي النائحات في الغيب،

أني تبدّلت حتى فقدت ثقتي بالمخابئ والجرفان،

أريد أن أنسى أنْ كنت يوماً ما صغيراً كالأطفال،

أريد أن أنسى صوت عنزاتي المذبوحات في العيد،

أريد أن أنسى بيتنا العتيق وحنّاء أمي،

والموسيقى التي تسبق البثّ، والليث الأبيض،

و"خمسة عشر رجلاً ماتوا من أجل صندوق"...

أريد أن أنسى حكايات "مريم الغضبان"...

أريد أن أنسى الركض تحت الأمطار الزعلانة،

والحقل وشجرة التين التي في الزاوية،
والرغيف الساخن الذي كنت أحمله للجيران،
أريد أن أنسى كم مرةً قلت وأنا أمدّ يديّ الصغيرتين به:
"أمي تسلّم عليكم"
آه لو أنسى أختي، والسطوح التي انتظرنا عليها "مدفع رمضان ..."
والأغنية التي نصيح بها مع الأذان:
"دفّع واذّن يا صيام... دفّع واذن يا صيام"
أريد أن أنسى السمبوسة، و"طاوة" الزيت، و"الدافور"،
أريد أن أنسى مرةً واحدةً فحسب...
حتى أكتب عن هذه الأيام التي لا تعرف شيئاً عن حنكي المرّ،
وصوتي المحروق، وعن أنفي والكدمات...
وخدوش الأيام البعيدات!

&

أحب الشمع...

لكني قطعاً لا أحب شمعة واحدة بالذات،

وأنفر مما يروونه عنها،

لأني ذاتِ يومٍ أشعلتُها... أشعلت تلك الشمعة،

كانت شمعةً بيضاء ومفلطحة...

مفلطحة مثل قلب،

قلبٍ مثل حرقٍ على زند سجين،

سجينٍ يائسٍ ومحكوم بالمؤبد،

تلك الشمعة غرستها في النافذة،

لا، لا... غرست النافذة فيها،

لكن الهواء العابر أطفأها،

الهواء العابر كنفخة،

نفخة أطفأت الشمعة هكذا "هـففففففففـه"...

ومضت!

&

بأحشاء كل وفيٍّ...
تربض خيانةٌ كبيرة!

&

ألم تخنك الحكايات بما يكفي بعد، أما زلت شعلةً هوجاء من نارٍ... أضرمها عاقٌ هارب، شديد الوجع، لم يأت ليدعو أحداً إليه، ولا ليكون إلى أحد، واختار أن ينفخ جمراته الكبيرات بفردانيةٍ وعناد، في الجبل فقط!

أبداً...

لم تغدر بك، لقد كانت مجرد يتيمة سرقوا منها "يا ربي"، و لم تملك يوماً الخبط على فخذيها، و لم تتعلّم العويل... كانت هي الفاجعة!

هكذا هي الأيام... منجل، يجزّ القصب، لكن لا يقتلعه!

إنك لن تحصل أبداً على فقد الذاكرة، لأنك امتنعت عن حياة الثمرة الصدفة، واخترت أن تغمس قلبك بين الجذور، وفي ساعة واحدة... ستتداخل الألوان، وتباشر حمرة الشمس زجاج البيوت، وتروح إلى أعلى الكشف، فتقطر قداسة المياه من صمت حدقتيك، وتسري فيك روح السماوات!

&

أي بلدتي العفيفة،

ما كنت هكذا والله!

أي...

أرجوك فلتبعدي عني وعّاظك الشبقين،

ألا يتركون لي حتى كلماتي النابية!

كلماتي التي لا تعرف شيئاً عن الحقد!

ألا يتركون لي كلماتي،

آخ!! ما الذي لديّ في وجه هذا التزوير،

والقبور التي يحشرنا فيها خطباء الجمعة والرمال،

وصياح الصغيرات اللائي لم يفزن بيومٍ إضافي،

والشهوات الداكنة خلف العباءات المرقطة، والمشالح، ودهن العود!

ماذا لديّ في وجه وقاحاتك، وأنا أرى الحب النذل يخرج من هذه الأرض،

يخرج حانياً منكبيه،

وخالعاً سرواله القصير عند الباب!

أي...

ما يسعني أمام روائح جوفك سوى شتائم لا أعرف كيف أجددها!

فقلبي يضيق ذرعاً بهذه الحقارات...

ولا أجد لعنةً أطلقها على قلب الحياة!

&

في لوثتي تشدني الزفرات إلى الفقدان،
فأبلع شهيق الكائنات،
منتصفاً أقدم ضدين... آخر ضدين،
أكسر حزمة الوقت،
كالعصيّ على ركبتي...
أصير بلا ذاكرة!

&

السبع الذي يعدو في قفار جنبيّ...
لا ينظر إلى وجه الفريسة،
لكنه حين لا يراه أحد يجرها إليه،
حيث يربض بجوارها خلف الصخرة،
ثم يزأر، ويناديها بيأس،
يزأر، ويلعن نابيه...
وأنا تعبت من الهوة التي ما زلت أطيح فيها،
تعبت من سكّينك أيتها الموسيقى وأنت تحزّين كلامي،
تعبت وأنا أتحلل هكذا كفريسةٍ لم يلتهما أحد،
تعبت وأنا أصلي أن يهجم عليّ النمر المرقط،
أن أعطيه يدي وأنا أضحك...
كل يا نمري الخوّاف،
أنت جائع،
وليس بحوزتي إلا يدي!

&

لا تهتموا...

سأحيا هنا في الركن، ولن أقف إلى جوار أيٍّ منكم،

وابتساماتي لن تظهر في صوركم التذكارية،

أدري أنه يخجلكم قلبي العريان!

&

كما لو أن في أوردتي ركضاً مفجوعاً بجوف نفقٍ أطول هذه المرة، ليس هرباً من وحش الوحدة وجدرانها، بل هرباً إليها، وكما لو أنها تلاشت الرغبة الحقيرة في الضوء...

وحلّت العتمة القدّيسة!

يااه... كم أنا بحاجةٍ للجلوس بحضن ليلةٍ غير مفهومة، في مكانٍ عامٍ، ببلدةٍ بعيدة، في ساحةٍ مملوءةٍ بالمقاعد والبشر، أولئك الذين لا يعرفونني ولا أعرفهم، ولا يعنيهم شرودي، ولا جلوسي وحيداً...

ولا يعنيني أني الغريب ما بينهم!

&

برأسي الفضية...

ومشياً على كتلٍ فاسدة التأريخ،

أخرجت لفافتي السحرية،

أمليتها حرفاً حرفاً من هويتي المرهونة لدى فندق ريفي...

يقدم البيرة وألبوماً لاختيار الليل،

في لفافتي قرعتان لاسم رضيعتين،

وقطرانٌ يفوح من زوايا روايات مهملة،

محاولة الالتحاق بـ سوق الأسهم، ولعن الخطوط المشغولة!

آه يا كلمات الكتب المهلهلة...

أما كنا في الجهة المقابلة نقترح الأرداف،

وحتى الذميمين وعدناهم بتغيير ألوانهم،

وتحريرهم من طفح الرغبة!

لفافتي...

آه يا للإغراء، ففي بقعة من هذا العالم،

تحت غطاءٍ بذرة كائنٍ جديد،

ورفاقي يمنحونني حلوى الخرافات في لحظة،

ثم يشحون بها سنين طويلة...

وأضطر دوماً للقول "سحقاً للأساطير"!

&

لفافتي...

بها فريسة تهرب للحياة... خيرٌ من نمرٍ عجوز!

وفي لفافتي...

الكمد، ورغبة الهدم، وأن لن أمشي خلف امرأة ،

أن أترك الباب نصف مفتوح،

وسيكون على طاولتي بعض النشوات والنيكوتين...

وأوراق، وقصائد، وأغنيات من هنا وهناك،

بفمها توقظ ضِلع الليل،

وتستدير عليه!

عفواً أيتها "الحداسة"،

أليس بوسعك أن تضعي في طريقي أنامل،

لا تستخدم الحاسوب، ولا تجيد المفردات المدنيّة،

أليس بوسعك أن تدسّيها تحت وسادة غيبي،

أن تخبئي لي حياةً مجنونةً،

حياةً برازيلية، تعلمني السامبا وقصة بيلييه،

وأحكي لها عن مقصف المدرسة!

أغني لها:

في قلبي قصص على مدار الساعة،

فيه فزعٌ كبير...

فيه ورق محروقة الأطراف،

ورنّتان لعودين قديمين،

فيه موشحاتٌ وتراتيل، وخيامٌ وفجرٌ... ودماء،

فيه الشيطان يرتب الشوارع والمواعيد،

ويصطحبنا في رحلةٍ صوفيّة،

ويبتسم لحلمنا العابر...

وتغني لي:

مدينة لك بشهقات وحدتي،

كررتها هنا على فراشي المعزول،

فمذ ولدت وأنا أتحسس سخونة بكائي،

كنت أعرف أنك تجول في مكانٍ ما،

في قَدَرِ ما...

وما عرفت أنك ستأتي دفعةً واحدة،

ومعك الأحجية،

وفي جيبك السراج الذي تقول على ضوئه الشعر،

وبعينيك السفر الذي تمنيته،

وأنك ستدربني على الهواء البطيء!

لفافتي...

الفراغ الممتلئ بلا شيء،

الطافح بلا شيء، والمكتظّ بلا شيء
فيا أيها الفراغ العظيم...
عبئني بك، واقذفني في طريق المارّة، واجعلهم غير مكترثين بي،
واتركني ندباً في جبين العالم...
فقد جهزت كلماتٍ للحزن وللفقد، وأكثر للسخرية،
ودربت فمي على الاستدارة،
ليصفر مرةً، ويبصق أخرى!

لفافتي...
نومٌ قليل، ونفسٌ مشرعةٌ على الوقت،
بداخلها قبوٌ تعوي به الأشباح،
ووجوه سيداتٍ مهووساتٍ بالعضّ،
ورجالٍ منافقين، يجيدون صفّ أفواههم،
ويكتبون صرخات نصرهم باستعجال،
لكن رائحة الدم في عطورهم!

لفافتي...
بقايا من رهاب الأطفال، وامرأة قلبها أعرج،
وأحافير ونقوشاتٌ غير مفهومةٌ،
ويافطات قدرٍ غريب...
و، و...، وابتهاجٌ غير مفهوم بطائرات خاصة،

ومهرجانات، وجوائز ضخمة، ومال طائل، وغرف فندقية،
وكؤوس، وصراخ أوربا، و... ههههه، وتمثالٌ رخامي،
وفرويد، وفورست جمب، ونيتشه، وهيجل، وآنيشتاين،
وصديقي عبد الوهاب، الذي دعاني للحياة البسيطة،
وقال: قم، إنها السابعة...
لكنّه مات بطريقة غامضة قبل أن تمرّ السحابة!
وفي لفافتي أن لم أنس مخاوفي، واللعنات التي حاقت بي،
والأعين التي كانت تباغتني... وكيف ظللتها،
وأني بمكرٍ كبير دونت مكاشفات المشلولين، وهواة الإبطين،
وحنجرة العاصمة الواسعة!

لفافتي...
وصية أبي "لا تطرق الباب الذي لا يفتح، ولا تخرج ليلاً بقلبك...
اخرج ببندقية!"
وفي لفافتي وصية أمي "يا ولدي، لا تخلط حليبي في دمك...
ولو بكذبة واحدة، فحليبي تفسده الأكاذيب!"

&

سأحدّق في السماء الآن،

لو كان هنالك شهمٌ يصرف عني هذا النهار،

يمنحني الظلام الشجاع...

فأنا مثلك أيتها القملة لا أحتاج للنور!

&

أكرهك أيتها الشمس البليدة،
لكني أرجوك أن تتمادي كل ظهيرة،
اسفحي ما تستطيعينه من العرق والرائحة،
بخّري ما تبقى من الرغبة،
واحرقي المواعيد الحلوة علنا في الشارع...
وزّعي ضرباتك على القلوب الخوارة،
تلك التي تمضغ لبان الحب،
ابعثي جراثيمك النائمة،
واطلي أيام الصاحين بالوباء...
أولئك الذين سرقوا الفانوس،
وكسروا الرّف الذي بذرت ذاكرتي عليه...
ونمت!

&

وليس لي من حكاية...

إنني في هرولتي أركل قدامي الكلام!

غلّ لا يحتاج للوقت...
إذ يشعر هذا الغامض أنه أصبح قادراً على الإحساس بمسافة جديدة تخلق في صدره... يغمض عينيه ويفكر "هنا خطوات نيّة... لتوّها مشت، كيف لم أنتبه لها!"
لكنه حقيقةً يدرك أنه لن يستطيع إيقافها
لأنه يرغب ألا تقف!
"ما يأتي كأحجية، ويعيش كأحجية... فإنه لا يموت!" هكذا قال طائر الحَرَام الذي عبر الأرض مرةً واحدة، و لم يمت لكنه ربما اختبأ في فستقة...
أو ربما قطع وريده، قريباً من حافة ثلجية، وجلس ينظر إلى حمرة دمه، تنساب على الثلج... وتتجمد. لم يبتلعه الجليد، فالشجاع ينام إلى جوار دمه!

الحرام هناك، والبنت الخمريّة محاطة بمنتصف الليل، حتى إنها نسيت وجه الظهيرة، ولا تتذكر في القيامة أن فاتتها السيئة الأخيرة، أن تركتها لأخرى تظن أن لون الحروق يجعلها أجمل!
لقد كانت الأرملة، التي مات زوجها ليلة زفافهما، الأرملة التي بلغت السبعين بعذريتها... وقبل أن تموت نصحت فتاةً صغيرة..."لا تهدري دنياك، ولا تملأي كأساً بالثلج وأنت غير مشغولة بفم ينهش

صدرك!"

الحرام هناك، فهل حدث وسمعت جبينك! وكما الحرام سيلمس المربوط صوتاً يمشي في جبينه، يقول له شيئاً لا يفهمه، لكنه سيميز الصوت، وحينها سيعرف أنه اكتشف أذنيه لأول مرة... فإذا خلى بالمذياع صار يمكنه أن يرى عبر الصوت عظام فيروز الحزينة، وسيحلف أنّ في نفس هذه الذبيحة لحن لم تغنّه بعد، ولن يتفهمه أحد!"

عيناه بعدها ستريان كل شيء، تريان مثلاً خوف بعوضة تمص دم السمين... وتخشى قبضته!

تسمع صوت البعوضة التي تنقل مرضاً فاتكاً، وكفّاً تهوي على ظهرها لتقتلها وهي تقول : "لا ذنب لي، هكذا تكلمت الطبيعة، أن أحيا من دمك، اقتل الطبيعة، لا تقتلني"

يسمع صوت اعتراضها حتى وهي جثّة... وسيعرف أن حياةً أخرى في جوف الحياة... لكنه كان خارجها؛

أن بوسعه أن يصير طائر الحرام الذي يعبر الأرض... ثم يرقد هناك على حافة الجليد، إلى جوار دمه!

وحتى ينبت في جنبيه الريش، كانت روحه عمياء سفيهة... كانت تقول أين هم الآخرون، و لم تقل أين أنا!

عند الباب وقف الحرام كالحاجب يوماً...

"أيتها القادمة، قبل أن تدخلي اخلعي نهديك وحوضك وفتنتك

كما تخلعين نعليك...

أيها القادم قبل أن تدخل اخلع جسدك القويّ كما تخلع نعليك،
اخلعوا أزياءكم هذه كي تروها خارجكم، ثم تحسسوها بصمت"

وعندما أصبح القادمان عاريين... أشاح الحرام بوجهه وبنبرته الثقيلة قال "الآن... البسوا لحمكم وادخلوا معي إلى السرداب!"

الحرام هناك، وحين يدخل الشارد للسرداب سيرى ذاكرته، سيرى شكله وهو في رحم أمه المسكينة... وستدهشه الرعشة التي لمعت في عينيه، وأمه تبكي لأنه صار في بطنها!"

حين يدخل السرداب سيرى كل النوايا التي أحاطت به... وسيرى كل الوقت الذي سأل عنه "أين هربت الأيام"، وسيمكنه أن يلمس الحب والحسد،

سيتألم لأن الحب مبعوج من كل زواياه!

والحرام... فكر طويلاً كيف يمكنه أن يتلو نشيده الأول عن السرداب، كيف سيخبر الممددين على جنبات الحسرة أنه بوسعهم أن يروا خاطرات خلاياهم، وأنهم لو مشوا أكثر لتذوقوا قطنة الحياة التي تسكن في أعمق ما في الحياة!

أما ذاته الحرام الرهيب فقد مشى كل السرداب، وصار يرى حتى حكاية الندبات، الملقاة على كفوف العابرين... أو كادت تكون،

لكنه امتنع أن يكون طائراً يعبر الأرض، ويرقد عند حافة الثلج، و جلس هناك... حيث لم يعرفه أحدٌ بعد، والناس من حوله ليسو جيفاً كاملةً، لكنهم أقلّ من الحياة!

يا روحه العمياء السفيهة، ربما الآن تشعرين بالخطوات التي مشت في جوفك، وربما تقولين "كيف لم أنتبه لها"...
فهيّا يا صغيرة، ارحلي لنومك، أما أنا فكما يحدث... لا أنام، لكنني أضيع عن الحسّ، أنزل من جبيني قليلاً!

كتبه/ هيبة الحزّ في رقبة المفقودات؛
الحرام

&

غلطتي الشاسعة...
أن ليس للّذي بي من لغة!

:

:

.

.

...Sign out



في كتابه «C.V. حرام»، أو سيرة الحرام الذاتية، يبحث عبد الله ثابت عن المعنى الفلسفي والجمالي العام والشامل للكلمة. يبدأ بشهقة «أفّ كيف سأحصل على الكلمات الممحوّة!»، وينتهي بفاجعة «ليس للذي بي من لغة!». ويتضمّن العديد من الصور والمحادثات والأغنيات، ورسائل الجوال، وكثيراً من الشعر، والقصص الخاطفة، والسرديات، والهوس، والروابط الإلكترونية... كل ما فيه أشبه ما يكون بمشي النائم الذي يحلم بمنام جميل... جميل وعابث!

عبدالله ثابت شاعر وروائي سعودي، يكتب عموداً أسبوعياً في صحيفة «الوطن» السعودية. صدرت له أربع مجموعات شعرية، وعن دار الساقي روايتان، «الإرهابي ٢٠» التي تُرجمت إلى الفرنسية والنروجية، و«وجه النائم».



